الإمامية في الفكر العربي القديم

عبد القادر فيدوح ـ جامعة البحرين

تعتقد الشيعة ـ بخاصة الغلاة منهم ـ أن مسألة الإمامة منصوص عليها بالنص بوصفها، في نظرهم ،أصلا من أصول اعتقادهم، وركنا من أركان الدين عندهم ، يكفرون من ينكرها وهي عندهم بمثابة النبوة ، أو امتداد لها ، أو قل في ذلك إنها منصب إلهي كالنبوة ، فكما أن الله سبحانـه و تعالى يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ، و يؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله...فكذلك يختار للإمامة من يشاء ، و يأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه إماما للناس من بعده، وتزداد المسألة تعقيدا في أثناء محاولتهم التفرقة بين الرسول والنبي والإمام لما رواه **الكليني**• حين سئل إمامهم الرضا عن الفرق بينهم فقال : إن الرسول الذي ينزل عليه جبرائيل فيراه و يسمع كلامه و ينزل عليه الوحي، و ربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، و النبي ربما سمع الكلام وربما رأى الشخص ولم يسمع، والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص[1]، و معنى ذلك أن الوحي متحقق حصوله للثلاثة على اختلاف في الطريقة والوسيلة التي يصل بها الوحي، لكن كانت رواية الكليني هذه تقول أن الإمام يسمع الكلام ولا يرى الشخص "أي الملك" مع أن هنالك عدة روايات عندهم تؤكد تحقيق رؤية الإمام للملائكة حتى أن عالمهم "**المجلسي**"عقد في البحار بابا بعنوان : باب أن الملائكة تأتيهم وتطأ فرشهم و أنهم يرونهم، وذكر فيه أحاديث كثيرة منها ما ذكره عن الصادق قال : "إن الملائكة لتنزل علينـا فـي رحالنـا،وتتقلب في فراشنا، و تحضر موائدنا، و تأتينا في وقت كل صلاة لتصليها معنا، وما من يوم يأتي ...إلا وأخبار أهل الأرض عندنا ومايحدث فيها "[1].

• الكليني (محمد بن يعقوب) : عند الشيعة هو بمثابة الإمام البخاري أو مسلم في المذهب السني.

1 الكليني : الكافي، دار التعاريف، بيروت، ج 1، ص 230.

1 ينظر : البحار دار إحياء التراث العربي بيروت 26 / 351 و الكافي 458/1. أيضا

لقد تفرق الناس عندهم في مسألة الإمامة إلى شيع وأحزاب ، لكن غالبيتهم تعتبر عليا خليفة رسول الله في أمره ووارث حكمه وولي عهده ، وصاحب الأمر من بعده، مؤكدين على أن الإمامة والعصمة مختصان بعلي بالنص ، من ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : **"وانذر عشيرتك الأقربين"**[2]، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طالب أن يضع له طعاما وجمع بني عبد المطلب فقال لهم أيكم يوازرني ويعينني فيكون أخي و خليفتي من بعدي و وصيي، فقال علي عليه السلام : أنا أبايعك و أوزرك، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : هذا أخي ووصيي وخليفي من بعدي ووارثي فاسمعوا إليه و أطيعوا له، و لقوله صلى الله عليه و سلم، وقال له : أنت أخي ووصيي وخليفتي بعدي وقاضي ديني فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون و يقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك و تطيع[13].

و إذا كانت الإمامة هي نيابة عن صاحب الشرع بحيث يجب اتباعه كما كانوا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذلك لأن عقيدتهم راسخة بأن عليا ولي عهد الرسول وخليفته من بعده حين آثره على سائر القوم ـ بخاصة أصحابه ـ حتى أن روايات الشيعة تجمع على أن الإمامـــة أصل من أصول الاعتقاد، و أهل القداسة والعصمة لأنهم أهل بيت النبـوة ،

امتثالا لما ترويه قصصهم في كثير من الأحيان ، منها على سبيل المثال قصة خروج الرسول صلى الله عليه و سلم في غزوة تبوك بعد أن أبقى عليا دون السماح له بالخروج معه، فبكى حينها علي فقال له رسول الله : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ألا أنه ليس بعدي نبي. إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي. من هذا المنظور تكون منزلة علي بمثابة منزلة هارون وموسى، ولم يستثن من جميع المنـازل إلا النبـوة ، و استثناؤها دليل على العموم، فهو إذن خليفته في قومه، ووزيره في أهله، وشريكه في أمره ـ عل سبيل الخلافة لا على سبيل النبوة ـ و أفضل أمته، وأولاهم به حيا و ميتا، وله

---

[2] سورة الشعراء، آية 214.

[3] ورد هذا النص بأوجه مختلفة، ينظر العاملي، المراجع 186 ، و كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للطويسي، مؤسسة الأعلمي 334.

عليهم من فرض الطاعة مثل الذي كان لهارون على أمة موسى زمن موسى[1]، و من شأن ذلك أن عليا، في منظور الشيعة، ولي كل مؤمن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بحكم النص كما أولوا ذلك في تفسير قوله تعالى : **"يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل ما بلغت رسالته"**، و أدلتهم على ذلك كثيرة لا حصرلها ،يمكن الرجوع إليها في متون أمهات الكتب الشيعية التي تبرهن على أنه من ألم بالسيرة النبوية وجده صلى الله عليه و سلم يصور عليا وهارون كالفرقدين على غرار واحد لا يمتاز أحدهما عن الآخر في شيء، و هذا من القرائن الدالة على عموم المنزلة في الحديث، على أن عموم المنزلة هو المتبادر من لفظه بقطع النظر عن القرائن، من حيث إن كليهما لا يمتاز عن الآخر في أمته بشيء ما، و يسرف بعض الشيعة الغلاة في أمر تصوير علي وهارون كالفرقدين، من حيث إن عليا أبى أن تكون أسماء بنيه إلا كأسماء بني هارون، فسماهم حسنا وحسينا محسنا وقال إنما سميتهم بأسماء ولد هارون، شبر وشبير ومشبر، أراد بهذا تأكيد المشابهة بين الهارونين و تعميم الشبه بينهما في جميع المنازل و سائر الشؤون[1].

لقد استندت الشيعة إلى إمامة علي عليه السلام ومن تبعه من الأئمة الآخرين على ما ورد في حديث الغدير، وهو الحديث الذي اتخذه الشيعة سندا لأحقية إمامة علي بعد الرسول صلة الله عليه وسلم وقد كان ذلك يوم خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وفي الطريق نزل عليه الوحي في قوله تعالى : **" يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته"**، وكان النبي عند غدير خم فجمع الناس في يوم قائظ شديد القيظ ودعا عليا إلى يمينه وخطب فقال : لقد دعيت إلى ربي وإني مغادركم من هذه الدنيا، وإني تارك فيكم كتاب الله وعترتي وأهل بيتي، ثم أخذ بيد علي ورفعها وقال : يا أيها الناس الست أولى منكم بأنفسكم؟ قالوا : بلى، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاه، وعاد من عاداه، وأنصر من نصره، و أخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار[2].

---

[1] الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي العاملي : المراجعات، دار انشارات، أسوة، إيران، 1413 ، ص 197.

[1] المرجع السابق، 212 و ما بعدها.

[2] الحديث متواتر في أمهات الكتب الدينية، بخاصة كتب الشيعة.

و من هنا قالت الشيعة بأحقية الإمامة وهو ما تبينه النصوص في تجسيدها للولاية نيابة عن الرسول حتى قالوا : الجاحد لولاية علي كعابد وثن، و من هنا أيضا كان تقدس الباطنية للإمام من حيث لا تقبل الأعمال إلا بالولاية، لأنها في رأيهم امتداد لباطن النبوة، معتبرين أن جزءا إلهيا حل في الإمام علي رضي الله عنه ، وحل من بعد في بقية الأئمة المعصومين . و النقل المتواتر دل على أنهم أحد عشر* بعد الإمام علي لوجوب العصمة و انتفائها عن غيرهم، ووجوب الكمالات فيهم، واستدل الشيعة على ذلك بوجوه ثلاث :

أ/ النقل المتواتر من الشيعة خلفا عن سلف ، فإنه يدل على إمامة كل واحد من هؤلاء بالتنصيص ، و قد نقل المخالفون ذلك من طرق متعددة، تارة على الإجمال وأخرى على التفصيل كما روي عن الرسول صلى الله عليه و سلم أنه قال للحسين : هذا ابني إمام ،أخو إمام، ابن إمام، أبو أئمة تسعة تاسعهم قائمهم.

ب/ أن يكون الإمام معصوما.

ج/ أن الكمالات النفسانية و البدنية بأجمعها موجودة في كل واحد منهم كما هو كامل في نفسه كذا هو مكمل لغيره، و ذلك يدل على استحقاقه الرئاسة العامة لأنه الأفضل من غيره[1].

و من غريب الافتراضات التأويلية المتعسفة أن تكون الإمامة ركنا من أركان الدين ، على نحو ما رواه الكليني بسنده عن أبي جعفر قوله : بني الإسلام على خمس، على الصلاة، و الزكاة، و الصوم، و الحج، و **الولاية**، و لم يناد بشيء كما نودي بالولاية، فأخذ الناس بأربع، و تركوا هذه، يعني الولاية[1]، فهم يعتقدون أنها محل الاهتمام والعناية، ولأنها لطف من الله يفيضها في أكمل عباده ، و بها يمتنع عن ارتكاب الموبقات والجرائم

---

* تتسلسل الإمامة عند الشيعة الإمامية من إثني عشر إماما : 1- علي بن أبي طالب 40 هـ 2- الحسن بن علي 50 هـ 3- الحسين 61 هـ 4- علي بن الحسين زين العابدين 94 هـ 5- محمد بن علي الباقر 114 هـ 6- جعفر بن محمد الصادق 148 هـ 7- موسى بن جعفر الكاظم 183 هـ 8- علي بن موسى الرضا 203 هـ 9- محمد بن علي الجواد 220 هـ 10- علي بن محمد الهادي 254 هـ 11- الحسن بن علي العسكري 260 هـ 12- محمد بن الحسين المهدي 255 هـ.

[1] ينظر كشف المراد، 375.

[1] الكافي : كتاب الإيمان و الكفر، باب دعائم الإسلام، 22/2.

عمـدا و سهوا[2].من أجل ذلك كانت الولاية عندهم أفضل[3] أركان الإسلام و من أنكرها فقد خرج عن ملتهم: ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيـهم ولهم عذاب أليم : من ادعى إمامة من الله ليست له، و من جحد إماما من الله، و من زعم أن لهما في الإسلام نصيبا[4].

ولكن ، لماذا لم تذكر الإمامة في القرآن؟

تكثر افتراضات الشيعة المتطرفة في هذا الشأن ـ التي يعجز عنها الحصر ـ لذلك جاء تحريف القرآن وتأويله لإثبات شرعية تأويلاتهم وآرائهم في الإمامة، رغبة في التخلص من التناقض الذي وقعوا فيه، عندما أرادوا تقوية تأويلاتهم و تفاسيرهم التعسفية صرحوا بنقص القرآن وتحريفه من أصوله، فهم يرون أن الذين جمعوا القرآن و قدموه لنا كما هو عبر الزمن قد أسقطوا سورة الولاية **"ولاية علي"** ولهذا يؤكدون أيضا أن الآية الكريمة : "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ...الآية" يرون أنها هكذا : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك في أمر تولية علي بعدك وإن لم تفعل ما بلغت رسالته. و هناك نص آخر لهم يقول : وإن لم تفعل عذبتك عذابا أليما . كما يزعمون أن النص الكريم **"فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب"** (الشرح 8،7) ليس متكاملا و صحته في زعمهم ...فإذا فرغت من نبوتك فانصب عليا وصيا وإلى ربك فارغب في ذلك !.. ، و يزعم أحد مؤرخي الشيعة الكبار أن جبريل قد نزل بالآية الكريمة : **"يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرًا لكم ، وأن تَكفُروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض"**(النساء 170) أنها هكذا في زعمه : يا أيها الناس قد جاءكم الرسول من ربكم في ولاية علي و إن تكفروا بولايته فإن لله ما في السماوات وما في

---

[2] ينظر الحسيني : سيرة الأئمة الإثني عشر، دار القلم، بيروت، 1981، 10/1.

[3] ينظر الكليني : الكافي، 22/2.

[4] المرجع السابق 434/1 و النصوص التي تكفر من أنكر ولاية أحد الأئمة كثيرة يمكن الرجوع إليها في مصادرها.

الأرض. ومن الواضح تعسف تأويلهم وشناعة تحريفهم[1] ، اعتقادا منهم أن القرآن منقوص ومغير فيه ، حرفه الصحابـة وأكابر الأمة الإسلامية حقدا على الإمام علي ، و عنادا لأولاده، و تضييعا لتراث آل البيت ، أهل القداسة و العصمة، أصل منشأ العبادة. من هنا كان تعاملهم مع القرآن ينحو منحى باطنيا في سبيل مواجهة السائد الذي اعتبروه طفرة سياسية ينبغي محاربتها بكل السبل وبمجاهدات مختلفة . و في خضم ذلك نبعث ميتولوجية المذهب الشيعي ـ المتطرف منه ـ بكل ما يملك من قوى باطنية تأويلية رغبة في الحصول على الإمكان المستلب، هادفا إلى قلب التاريخ من خلال ما أنتجه من خطاب ميتولوجي كانت فيه صورة الذات (**الإمام المعصوم**) بإزاء صورة الآخر (**مالك التاريخ**) وتخيّل وهو لا يملك في مظلوميته سوى حق الخيال، أنه مقبل على انقلاب تاريخي يقوده ثالوث حي معصوم : **الله ، النبي ، الإمام** ، يقوده طليع إمامي : **مهدوي/ نبوي/ إلهي**[1].

على الرغم من أن عليا لم يظهر منه ولو إشارة واحدة تبين استناده إلى القرآن في مسألة وراثة النبوة (**الأسرة المالكة**) إلا فيما ورد منه في مسعاه إلى وراثة النبي والفرق بين وراثة النبوة ووراثة النبي ، ولكن المسألة انقلبت في يد النظرية الشيعية المتطرفة من وراثة النبي إلى وراثة النبوة ، و مسؤولية علي على هذا الانقلاب هي مسؤولية صاحب الفكرة عن فكرته حين تخرج من يديه فلا يملك السيطرة عليها بفعل التداعي في الحوادث وفي المعاني على السواء...و من هنا كان عدم استناد الإمام إلى القرآن في إثبات الوصية له من الأمور التي ينبغي التمحص فيها بدقة، إلا أنه ربما أشار إلى هذه الوصية بوصفها رغبة من الرسول صلى الله عليـه و سلم فيها وإرادته له دون أن يتجاوز الرغبة إلى مقام التكليف من النـص وفي حيز هذه الرواية ما يوضح ذلك ، يقول ابن عباس : خرجت مع عمر إلى الشام في إحدى خرجاته، فانفرد يوما يسير على بعير فاتبعته فقال : يا ابن عباس أشكو إليك ابن عمك، سألته أن يخرج معي فلم يقبل ولم أزل أراه واجدا ، فيم تظن موجدته؟ إنه يزعم أن رسول الله أراد الأمرلـه، فقال ابن عباس : أراد رسول الله صلى الله

---

[1] ينظر جهود الدكتور عبد القادر محمود في كتابه : الفكر الإسلامي و الفلسفات المعارضة، الهيئة العامة للكتاب، 1986، ص 34 ، و ما بعدها، بما في ذلك الهوامش ضمن تعليقاته المهمة و المستندة إلى بعض مصادر كتب الشيعة المتطرفة.

[1] خليل أحمد خليل : العقل في الإسلام، دار الطليعة، ط2، 1993، ص 215.

عليه وسلم فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك، إن رسول الله أراد ذلك وأراد الله غيره . فنفذ مراد الله تعالى و لم ينفذ مراد رسول الله ، أو كل ما أراد رسول الله كان ؟ إنه أراد إسلام عمه ولم يرد الله فلم يسلم، فنحن نفهم مع عمر أنه إذا كان ثمة بالفعل رغبة نبوية في تولية علي فهي من قبيل الإرادة الشخصية التي يمارسها النبي صلى الله عليه و سلم ، كإنسان فرد يرغب ويريد، وليس كرسول حاكم يكلف ويلزم، وقد أفصح عمر عن هذه التفرقة بمثال واضح هو رغبة النبي التي لم تتحقق في إسلام عمه أبي طالب[1].

و لتأكيد وجوب نصب الإمام ـ سواء بوجوب الله أم بوجوب العقلاء ـ راحت فرقة الباطنية تبني تعاليمها في هذا الشأن على الفيض الإلهي بمعرفة الأئمة و تعيينهم بالنص، وذلك أمر وارد ـ في اعتقادهم ـ لما في الإمام من لطف ، فاعتبروا نصبه واجب على الله تعالى تحصيلا للفرض، وإنما يكون كذلك إذا كان متصرفا بالأمر والنهي. ومن هنا راحوا يتأولون النصوص لإثبات وجوب النص على الإمام بما ورد في الآية **: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين**"(التوبة 119)، وتبعا لذلك فالإمام أمر بالكون مع الصادقين ، أي المعلوم منهم الصدق، و لا يتحقق ذلك إلا في حق المعصوم ، إذ غيره لا يعلم صدقه، و في قوله تعالى : **"يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم"** ظنا منهم أن ذلك أمر بالاتباع و الطاعة لأولي الأمر الذين هم الأئمة المعصومون ، إذ غيرهم لا يقتضي وجوب طاعتهم[2].

و من يتتبع آراء الباطنية من المذهب الشيعي يجدهم يلحون على وجوبها على الله تعالى من منظور أن الإمام لطف، و من ثمة فإن كل لطف واجب على الله . أضف إلى ذلك أن كل ما دل على وجوب النبوة فهو دال على وجوب الإمامة، إذ الإمامة خلافة عن النبوة قائمة مقامها، وكما أن تلك واجبة على الله تعالى في الحكمة فكذا هذه. كما أنهم يرون أن الإمامة في وظيفتها هي امتداد للنبوة، فكما كانت وظيفة النبي تتمثل في ممارسته للسلطتين الدينية والسياسية ، و أن السلطة السياسية هي من الدين وليست اجتهادا من النبي ـ والنبي في رأيهم ـ غير ممكن أن يرجع إلى اجتهاد، لأن الاجتهاد عرضة للخطأ ، ولأن نتائجه

---

[1] ينظر عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، العقل الفقهي السلفي بين النص و التاريخ، المركز الثقافي العربي، 1998 ، ص 207، و ينظر أيضا ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، 114/3.

[2] ينظر نصر الدين محمد بن الحسن الطوسي : كشف المراد في تجريد الاعتقاد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1988، ص 348، و ما بعدها.

ظنية، والنبي معصو، والمعصوم لا يخطئ[1]. فإذا تعمقنا في استكناه افتراضاتهم يكون نهجهم في التأويل مثارا للجدل، يصعب التدليل على صحة نظره مما يستحيل على الفهم المنطقي أو الشرعي أن تقبلها إلا فيما تثيره من صراعات كلامية، على حد ما ورد في تأويلاتهم لمثل هذه الآيات* التي يعجز عنها الحصر، فمنها ما كان محرفا، ومنها ما جاء مؤولا، كما في قوله تعالى :

1- **"لئلا يكون للناس [على الله] حُجّة إلا الذين ظلموا منهم"** (البقرة150) أصبحت على هذا النحو : لئلا يكون للناس [عليكم] ...

2- **"كنتم خير [أمة] أخرجت للناس"**(آل عمران 110). وردت عندهم : كنتم خير [أئمة]

3- **الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين [و اجعلنا للمتقين إماما]** (الفرقان 74) وردت عندهم كما يلي ...[واجعل لنا من المتقين إماما].

4- **له مُعقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه [من] أمرالله .** (الرعد11) أوّلت عندهم على هذا النحو : له معقبات [من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله].

لقد تعاطت الباطنية (الشيعية) ـ من غير الإمامية ـ مسألة الإمامة بالتأويل القسري إلى درجة تزويرها حقيقة الشرع بتحوير مضامينه وتفريغ محتواه، وهذا ما لا يمكن تبريره إلا بوقوعهم في كثير من الافتراضات المجحفة عبر آلية التأويل، من منظور أن حدود افتراضاته غير مضبوطة، مطاطة، ولا يمكن القبض عليها وهذا ما يشكل غياب المنهج المعبر عن دسائسهم المغرضة مما عزز وتيرة التنافس و الحرب الكلامية الدائرة بين المذاهب على اختلافها والتي مثلت صراعا ضاريا من أجل البقاء ،لا يثبت فيه إلا الأقوى.

---

[1] عبد الهادي الفضيلي، خلاصة علم الكلام، دار المعارف، 1998، ص 294.

* يصعب تحديد كل ما ورد عنهم في تأويلاتهم لآي الذكر الحكيم.

لهذا السبب كانت الحرب الدفاعية التي أقامتها الباطنية الشيعية متخذة من مدرسة الرأي التي حاولت تثبيت بعض الأفكار الغنوصية كالقول **بالوصية الصريحة للإمامة، وعصمة الأئمة، الغيبة، فكرة المهدي المنتظر**، وكلها تدخل ضمن دعوتهم إلى شرعية ظاهرة **"توريث النبوة"** المسكوت عنها في القرآن بعد أن صار النص ـ تباعاـ مستباحا للعبث بما تقتضيه قراءاتهم من القول بالتحريف . على الرغم من أن القرآن الكريم لم يتحدث لا من قريب ولا من بعيد عن قضية السلطة التي أخذت أبعادا تأويلية بوجوب نصب الإمام، بوصفه وريثا شرعيا للرسول صل الله عليه وسلم بالنص على نحو ما رواه الكليني[1] عن جعفر أنه قال : إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين، وأهل البيت هم الذين أورثهم الله الأرض و هم المتقون ، وهو ما ترفضه السنة، من حيث إن مسألة توريث النبوة مسألة غير قائمة على سند حقيقي ، ولم يقل بها القرآن ولا السنة.

لقد اقتضت الحكمة من الله جل شأنه ألا يفصل في مسألة الخلافة من بعد رسول الكريم وتركها إلى جواز تصرفات المسلمين الممكنة بحسب حاجة المجتمع إلى من يظنون فيه استتباع مبادئ الشرع الإسلامي ، لذلك اقتضت حكمة الله أن تكون السلطة في أمر المسلمين لتعزيز التكامل الاجتماعي عن طريق ما يسمى بـ **"الإباحة"** بين رجحان الفعل الإرشادي [**السلطة**] ورجحان **"الوجوب"** مصدر الطاعة والتطبيق العملي بواسطة قواه الفعالة. ومع إيماننا الراسخ بأن الله عادل، حكيم، فقد جاءت رسالته قائمة على أساس الحكمة منه والمصلحة البشرية، ومن هنا يكمن سر القدر الإلهي ، لأن معنى كون المصلحة تقتضي ترك الأمر شورى بين المسلمين، و ليس قوله تعالى : **"و خلق كل شيء فقدره تقديرا"**(الفرقان 2)، **" الذي أحسن كل شيء خلقه"**(السجدة 7)، ليس ذلك إلا من قبيل حسن التدبير للبشرية في وضع كل شيء موضعه بحسب المصلحة وهو المراد : **"أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا"**.(المؤمنون 115)

لذلك كانت فكرة وراثة النبوة مستبعدة من قبل المذاهب إلا فيما أولت النظرية الامامية بخاصة منها الباطنية الشيعية التي كرست افتراضاتها المثيرة للجدل بكل آثارها السلبية، والتي أسفرت عن تطبع السلطة بهذا الطابع الثيوقراطي الفج ، إذ الحاكم في هذه

---

1 الكافي، 298.

النظرية ليس بشرا عاديا تختاره الجماعة المحكومة ، وإنما هو **إمام** مختار من قبل الله ، ورث علم النبوة كله، وهو بهذه المثابة موصول بالسماء على الدوام ، معصوم من الخطأ و الخطيئة، يقول الحق ولا ينطق عن الهوى، فالحاكم هنا لا يمارس سلطة زمانية وإنما يمارس سلطة **"النبوة"** ذاتها[1].

وقد بذل جماعة الباطنية المغالون كل ما في وسعهم لاستخراج ما يلائم أفكارهم من النصوص الشرعية رغبة في التدليل على مواقفهم، تبعا لما يتوهمونه، فكان نتيجة لذلك أن خرجوا عن الصواب باتخاذهم الأبعاد الرمزية لافتراضاتهم التي انبنت على تصورات غير يقينية، والابتعاد بها عن دلالتها الحقيقية، و لم يروا سوى الوجه العجيب من النص بحيث يبدو كل ظاهر باطنا، و الباطن بلا حدود تحده أبدا. ففي تأويلهم (**فاخلع نعليك**) (طه 12) تتحول المعاني إلى : (اخلع الدنيا و الآخرة من قلبك) أو إلى (تنق من نوعي أفعالك) وتتحول (**إلق عصاك**) (الأعراف117) إلى : ولا يكون لك معتمد و مستند غيري، و كذلك تتحول (**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكَر فيها اسمُه و سعى في خرابها**) (البقرة 114) إلى : (إن الله نبه بذلك على أنه لا أظلم ممن خرب أركان الإيمان بالشهوات)، ومساجد الله هي إما أركان

الإيمان أو قلوب المؤمنين المعمرة بالمني والشهوات والتي شحنها الله بمحبة الدنيا وفرغها من محبة الله تعالى[1].

مجمل القول: إن آفة نهج التأويل لدى غلاة الشيعة تكمن في ابتعادهم عن الصواب ، بدخولهم في مبدأ خلق التوازن بين ما هو مقدس ومتفق عليه، وما هو مفترض، باستعمال كل أساليب الإقناع الممكنة، حتى ولو كانت عن طريق الخلق والتبدع بدون بينات متحدة من أوامر الشرع مما سهل عليهم تحويل النص من دلالته الشرعية (**المرجعية**) إلى دلالته الرمزية (**الإنتاجية**).

---

[1] عبد الجواد ياسين : السلطة في الإسلام، 205.

[1] عبد الهادي عبد الرحمن:سلطة النص (قراءة في توظيف النص الديني)، المركز الثقافي العربي، 1993 ، ص 209.

من خلال تحول النص من وظيفته الشرعية إلى وظيفته السياسية أو من رؤيته الإنسانية إلى رؤية مذهبية نفعية تكون طائفة غلاة الشيعة قد أفرطوا في تأويلاتهم ، لكن ، وبدون وعي منهم دفعوا بالخصوم ـ من المذاهب الأخرى ـ إلى استخراج تأويلاتهم كرد فعل للطرح الشيعي مما برهن على نمو الفكر، بخاصة في مجال التوحيد والإلهيات، فكان أن أفاد ذلك ـ وغيره ـ الفلسفة الإسلامية ، وعمق الجهد العقلي في الافتراض و الاستنتاج مما هيأ ـ لاحقا ـ الأرضية لنضج الفكر، كما كانت هذه الأفكار ـ على علاتها ـ مثيلا للفلسفة العربية الإسلامية.

لقد كان للمصادمات الكلامية فيما بين المذاهب أثرها الفعال في تنوير الفكر العربي مما فتح آفاقا متميزة لعلم الكلام، سواء ما كان نابعا من التيار السلفي ، أم العرفاني ، أم الصوفي، بخاصة في مسألة مجاهدة النفس بغرض التقرب إلى ذات الحق . أضف إلى ذلك أن في لجّة هذا الصراع ظهر نشوء العقائد المختلفة التي شكلت المحور الأساس للصراع الفكري ، وهو صراع ناجم عن الفتنة بين الشيعة والسنة ، هذا الصراع المرير على الخلافة الذي حول إسلام الروح والشعائر إلى إسلام السياسية والمصلحة حين كانت مشكلة الخلافة هي أول قضية طرحت نفسها على الفكر العربي الإسلامي حيث كانت آخر قضية حاول هذا الفكر تنظيرها ، مع العلم أن النقاش في هذه القضية قد بدأ في وقت مبكر وأنه كان المنطلق الذي قام عليه علم الكلام أكثر أنواع العلوم الإسلامية إيغالا في التجريد والتنظير...ذلك أن تنظير الخلافة و التشريع للحكم كان يتطلب وجود قواعد للتفكير تستطيع أن تبرر الواقع وتقننه بإضفاء الصبغة الشرعية عليه[1].

---

1 محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي، 107.